دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [2.32].

لمحاتٌ تاريخيَّةٌ عمرانيَّةٌ ومعماريَّةٌ عن مدنٍ من الغرب والشَّرق الجزائري
دراسة في رحلة الألماني مالتسان خلال القرن التاسع عشر الميلادي

د. حسن بربورة
دكتوراه تاريخ الدولة العثمانية
مخبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور
جامعة يحي فارس المدية – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّصْ

تعتبر الرحلات الأجنبيَّة إحدى المصادر المهمَّة في دراسة تاريخ الجزائر، وقد قام الرَّحالة الألماني "هاينريش فون مالتسان" برحلته إلى الجزائر أواسط القرن التاسع عشر الميلادي وقضى فيها ثلاث سنوات ١٨٥٦-١٨٥٩م، ليقدِّم كتابه "ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا"، حيث تضمَّنت يومياته نظرةً شاملةً عن بعض المدن الجزائريَّة شرقًا وغربًا وحملت رحلته العديد من المشاهد والمفارقات التي تتعلَّق ببلدٍ تحوَّل إلى مُعسكَرٍ لا مكان فيه للمدنيِّين إلا باحتقارٍ تامٍّ. والذي يظهر من خلال الدّراسة، أنَّ مالتسان قد توصَّل إلى معرفة العديد من العاداتِ والتقاليد، وحتى الأساطير في مختلف الجهات التي زارها وأَقَامَ فيها، وضمَّن رحلته عديد المعلومات التاريخيَّة، السياسيَّة، الاجتماعيَّة، العمرانية والمعماريَّة وحتى الطبيعيَّة، إضافةً إلى تجاربه الشخصيَّة وملاحظاته الخاصَّة، والتي تبقى وُجهَةُ نَظَرٍ أجنبيَّةٍ من حقِّنا مُناقشتها ً. ومن أهم الفوائد التي نخرج بها من دراسة هذا النَّص الرِّحلي أنَّه يُعرِّفُنَا على الحياة الاجتماعيَّة، الاقتصاديَّة، وشرائحِ المجتمع في الجزائر أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، والتطوُّر الذي وقع لمدننا وقرانا في بداية المرحلة الاستعماريَّة، وما رافقها من محاولات طمس للهويَّة، وتغيير واقع المدن والمجتمع الجزائري.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٦ ديسمبر ٢٠٢٤
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ ينـايـر ٢٠٢٥

كلمات مفتاحية:

مدن جزائرية؛ كتب الرحلة؛ هاينريش فون مالتسان؛ الجزائر العاصمة؛ الرحلات الأجنبيَّة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2025.347999.1197

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

حسن بربورة، "لمحات تاريخيَّة عمرانيَّة ومعماريَّة عن مدن من الغرب والشَّرق الجزائري: دراسة في رحلة الألماني مالتسان خلال القرن التاسع عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة الثامنة عشرة- العدد السبعون؛ أغسطس ٢٠٢٥. ص ١٢٠ – ١٣٣.

Corresponding author: barbora.hacen@univ-medea.dz
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

نُشر هذا المقال في دَّورِيةُ كَان التَّاريْخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made.

مُقدِّمَةٌ

منذ سنة ١٨٣٠م هاجر الكثير من الألمان نحو الجزائر بعد أن كانت هجرتهم في أوَّل الأمر نحو الأمريكيتين واستراليا، وهذا بسبب معاناة فرنسا من الرَّصيد البشري الكافي لاحتلال الجزائر، حيث غادرت الكثير من العائلات، الطلبة، المثقفين، وحتى المغامرين من مدن ريناميا Rhenamie، بافيير Baviere، ولوديشي دو باد Le Duche de Bade نحو مدينة لوهافر الفرنسيَّة ثم نحو المستعمرة الجديدة، أين خَصَّصَت لهم سُلطات الاحتلال مراكز استيطان في الجزائر كالدويرة، بوفاريك، وكذا في تلمسان، ومركز الغَزَوَات بوهران، وشاركوا في قوات اللَّفيف الأجنبي[١].

وقد قام الرَّحالة الألماني "هاينريش فون مالتسان" برحلته إلى الجزائر خلال الخمسينيات من القرن التاسع عشر الميلادي، أي في فترة بدايات الاحتلال الفرنسي للجزائر، وقضى فيها ثلاث سنوات ليقدِّم كتابه "ثلاث سنوات في شمال غربي إفريقيا"[٢]، حيث تضمَّنت يومياته نظرةً شاملةً عن المدن الجزائرية وواقعها أثناء الاحتلال الفرنسي قياسًا بما ورد في كتاباتٍ أجنبيةٍ أخرى[٣]، ولعلَّ هذا بالذَّات ما يُميِّز كتاباته عن الكتابات الأخرى التي وضعها بعض مواطنيه، فقد اكتفى "سيمبر" Wilhelm sempre في رحلته إلى الجزائر سنة ١٨٣١م، والتي مكث فيها بضعة أشهر-إذ أَرجَعَهُ المرض إلى بلاده في صيف سنة ١٨٣٢م- بوصف مدينة الجزائر ونواحيها والتَّعريف بِسُكَّانها وأوضاعهم الاجتماعيَّة والحديث عن الحركة الصِّناعيَّة والتِّجاريَّة والثَّقافيَّة، واكتفى الأمير "موسكاو" von Pückler-Muskau ١٧٨٥–١٨٧١م بوصف بعض مناطق السَّاحل الجزائري، والتَّعليق على بعض الأحداث التي وقعت خلال زياراته للجزائر، وكان "فاغنر" Wagner Moritz قد اقتصر بدوره على مناطق مُعيَّنَة، وأُتيحَ له ما لم يُتَح لغيره، وهو زيارة مدينة معسكر وما يليها من المناطق التي كانت تابعةً لدولة الأمير عبد القادر[٤]، كما كتب سيمون بفايفر George Simon Pfeiffer مذكراته عن السنوات الخمس (جويلية ١٨٢٥–سبتمبر ١٨٣٠م) التي قضاها في قصر الخزناجي أفندي بالجزائر (لمحة تاريخية عن الجزائر)[٥]، وهو الذي لم يكتم مشاعره وتحيزه للفرنسيين وغبطته باحتلالهم مدينة الجزائر[٦].

هذا وقد تمكَّن مالتسان من التجوال في الجزائر شرقًا وغربًا، لنفوز منه بيوميات دقيقة، وبرحلة تحمل العديد من المشاهد والمفارقات التي تتعلَّق ببلدٍ تحوَّل إلى مُعسكَرٍ لا مكان فيه للمدنيِّين إلَّا باحتقارٍ تامٍّ، وقد ترجمت الرحلة من الألمانية إلى العربية بفضل الأديب والمؤرخ "أبو العيد دودو"[٧]، والذي حرص على ترجمة العديد من الأعمال التاريخية –رغم أنَّ التاريخ لم يكن اختصاصه– وكان وراء حرصه على ذلك أهدافًا سامية كما يؤكد بنفسه: "ولا أخفي أنه كان لي هدفٌ وهو أن أفتح نافذةً أخرى غير النافذة التي نُطلُّ منها إلى الخارج عبر اللُّغة الفرنسيَّة، فَلَكَم كان يَحُزُّ في نفسي أن أرى جزائريًا يكتب تاريخ الجزائر، وهو لا يُحسِنُ غير الفرنسيَّة، أو آخر لا يُحسِنُ غير العربيَّة، فَيُعَدُّ كِلَاهُمَا تابعًا للمُؤرِّخين الفرنسيِّين، بواسطةٍ أو بدون واسطةٍ"[٨].

أولًا: تقديم المصدر

هاينريش فون مالتسان Heinrich Von Maltzanعالم آثارٍ ورحَّالةٌ ألماني، ولد في مدينة دريسدن، في السادس سبتمبر ١٨٢٦م، وتعلَّم في مدارس هايدلبيرك، ودرس القانون في جامعة مونشن، وهارلانغن، وتعلَّم إلى جانب ذلك اللُّغات الشَّرقيَّة، وبعد وفاة والده سنة ١٨٥١م الذي ترك له ثروةً كبيرةً، اشتغل بعد تَخرُّجِه في وظيفةٍ حكوميَّةٍ لفترةٍ قصيرةٍ، ولاعتلال صحَّته أمضى بقية حياته في أسفارٍ بين البلدان الدَّافئة، فسافر إلى المغرب والجزائر، ثمَّ مصر وفلسطين والمشرق العربي، كما زار مكَّة مُتنكِّرًا في زيِّ حاجٍّ وكتب تقريرًا عن رحلته تلك في كتاب حجي إلى مكة المكرمة Meine Wallfahrt nach Mecca، وفي سنتي ١٨٥٦م سافر مرَّةً أخرى إلى الجزائر، ثم زار بعد ذلك ممباي، وبعدها عاد ليتجوَّل في جزر البحر المتوسط، ليعود في النهاية إلى مدينة بيزا، التي أنهى فيها حياته بطلقة مسدس في ٢٢ فيفري ١٨٧٤م، وهذا بعد أن اشتدَّ عليه مرضه العصبي[٩].

جاءت رحلة مالتسان في أربعة أجزاء، خصَّ الجزائر بثلاثة منها، ويصف في الرَّابع بعض مدن المغرب

الأقصى التي زارها والحياة فيها[١٠]، حيث طُبِعَ الجزء الأوَّل سنة ١٩٧٦م، وتحدَّث فيه المؤلف عن مدينة الجزائر وما حولها، أمَّا الجزء الثَّاني فَنُشِرَ سنة ١٩٧٩م، وصوّر بعض المدن الجزائرية التي أقام فيها حينًا أو أحيانًا، ونُشِرَ الجزء الثَّالث سنة ١٩٨٠م، وسجَّل فيه رحلته إلى شرق البلاد وجنوبها، حيث ينطلق من قسنطينة نحو الصَّحراء، فيزور مدن الأغواط، الجلفة وعين ماضي وغيرها، وضمَّ الكتاب عموما عدَّة معلومات، لا سيما ما تعلَّق بالشَّخصيَّة الجزائريَّة، لذا فقد حاولت دراستنا، توظيف العديد من النُّصوص للاتصال أكثر بالرِّحلة، ومعرفة وجهها لا ظهرها.

وحسب المترجم فإنَّ مالتسان بَنَى أحكامه غالبًا على التَّجربة والملاحظة الدَّقيقة[١١] وهذا رغم إشارته لبعض المصادر التي لم يضع لها قائمة بيبليوغرافية -على الأقل في الجزء الذي اطَّلعنا عليه- أو ربما لأن كتابه يكتسي طابع الرحلة التي تعتمد الملاحظة والتَّجربة الميدانية أكثر من شيءٍ آخر، ولكن مع ذلك ومن خلال ما تضمَّنه الكتاب، يمكن الإشارة إلى بعض المصادر التي اعتمدها المؤلف مثل: كتاب المغرب في ذكر بلاد إفريقيا والمغرب للبكري عبيد الله، وكتاب البلدان لليعقوبي بن واضح، ونزهة المشتاق في اختراق الآفاق لمحمد الشريف الإدريسي، وشرف بني زيان لمحمد التنسي، وخارطة الطرق لأنطونين وكتاب Le Registre Sacré de L'Église Africaine لأسقف الجزائر ديبوش Debuche، وكتاب Voyage de la Région D'Alger لماك كارتي Mac Carty، وكتاب التَّاريخ الطَّبيعي Historì Naturalis لبلينوس كاسيلوس Plinius Cacilius Secondus وغيرها من المصادر التاريخية.

وبالحديث عن الجزء الثَّاني من الكتاب موضوع الدراسة، فقد جاء ضمن حوالي ٢٨٣ صفحةً، تطرَّقت لثلاث رحلات أساسيَّة[١٢]، الرِّحلة الأولى (من الجزائر إلى معسكر غربًا)، الرِّحلة الثَّانية (من الجزائر إلى جبال جُرجُرة شرقًا)، والرِّحلة الثَّالثة (مواصلة الرِّحلة شرقًا وزيارة بعض المدن الدَّاخليَّة)، كما تضمَّنت الرِّحلة ملحقاتٌ -ضمن أوراقٍ سميكة غير مُرقَّمة- تحمل رسوماتٍ لبعض المدن والمناطق الجزائريَّة (١٢ صورة كوهران، بجاية تلمسان وقلعة المشور.

ثانيًا: الرِّحلة الأولى (من الجزائر العاصمة إلى مدينة مُعَسكَر غربًا)

يبدأ مالتسان رحلته في (الجزء الثَّاني) من مدينة "أرزيو"، ويَمُرُّ بعدد من القُرى الصغيرة وهو في طريقه إلى وهران، ثم تلمسان ومعسكر، وبها تنتهي رحلته في الغرب الجزائري، ليعود إلى وهران، ثم إلى الجزائر العاصمة مباشرةً عبر رحلة بحريَّة. ونشير إلى أنَّ مالتسان كان يُسافر كثيرًا على ظهور الجياد، ولم يركب السَّفينة إلَّا مرَّتين، وكان يُرافقه في رحلته أحيانًا بعض السُّوَّاح من مُحبِّي الآثار، كما يصحبه البعض بصورة رسميَّة أو بصفة غير رسميَّة.

يقول مالتسان أنَّ مدينة أرزيو القديمة، والتي كانت تُسمَّى "أرزيناريا" أو"أرسينا" مدينة غنيةٌ بالآثار، ونقوشها الفينيقيَّة لا تزال موجودةٌ بمتحف الجزائر، أمَّا أرزيو الحالية (القرن التاسع عشر الميلادي) فلم يستقر بها الفرنسيُّون إلا سنة ١٨٤٦م، ويبلغ عدد سكانها ألف أوربي نصفهم من الإسبان[١٣].

وفي طريقه من أرزيو لوهران يمرُّ الرَّحَّالة بالكثير من القُرى: كسانت ليوني (بوفاطيس) والتي يعاني سكانها بؤسًا شديدًا تحت الاستعمار، وقرية سان كلو(قديل). ويُشير مالتسان هنا إلى نقطةٍ مهمَّة وهي أنَّ عملية استغلال الأراضي وتعميرها قد نجحت في منطقة وهران أكثر من غيرها، والسَّبب يعود إلى وجود جاليات أخرى غير الفرنسيِّين كالأندلسيين والسّويسريِّين والألزاسيِّين وحتى الرُّوسيِّين، ومن القرى الأخرى بالمنطقة: قرية كليبر (سيدي بن يَبْقَى)، وقرية أركول (بير الجير) وهي مستعمرةٌ أخرى أُنشئت سنة ١٨٤٨م، وكذا قرية فلوروس (حسِيَان الطَّوَال).

أمَّا وهران وبالنَّظر لمبانيها فيرى بأنَّه يمكن أن تكون في أوربا، فليس هناك في الجزائر مدينةٌ فقدت طابعها العربي مثلما فقدته هاته المدينة، وهذا بسبب أنَّها بقيت بأيدي الإسبان حتى نهاية القرن الثامن عشر الميلادي، وبذلك فهي لم تبقى تحت حكم داي أكثر من ثلاثين سنةً، وهو قولٌ غير صحيح فمدينة وهران رغم الاحتلال الإسباني الطويل لها قد حافظت على طابعها الاسلامي، وهذا باعتراف كُتاب إسبان معاصرين للفترة، ويظهر

ذلك من خلال نسيجها العمراني ومعالمها الاسلاميَّة من مساجدَ وقُصُورٍ ودُورٍ، وهي كثيرةٌ بعضها ما زال قائمًا إلى اليوم، وقد بقيت تحت حكم الدايات أزيد من ٣٩ سنة منذ تحريرها الثاني فبراير ١٧٩٢م، وإلى غاية الاحتلال الفرنسي للمرسى الكبير في ديسمبر ١٨٣٠م ودخول مدينة وهران في الرابع يناير ١٨٣١م على يد الجنرال الكونت دنيس دامريمون.

وموقع وهران كما يصفه مالتسان غير منتظم، حيث تتكون من مدنٍ صغيرةٍ متعدِّدة، تفصل بينها هُوَّةٌ عميقةٌ إلى حدٍّ ما، يسيل عبرها واد الرّهى (الرّحي)، "ولا شكَّ أنَّ المدينة الإسبانية القديمة التي أُعيدَ بناؤُهَا اليوم من أجمل أقسام المدينة، ففيها بناية البحريَّة والمستشفى العسكري، والكنيسة الرئيسيَّة، وهي اسبانيةٌ في الأصل، أمَّا القسم الفرنسي الأعلى من المدينة فيحتوي على الثَّكنة وبعض البنايات العامَّة، ويحتوي كذلك على أحسن الفنادق والمقاهي"[١٤]، ويتعجَّب مالتسان من التِّعداد السُكَّاني القليل للمدينة، حيث من الصَّعب أن يُصدِّقَ المرءُ أنَّ وهران رغم أهميَّتها، لا يَسكُنُها إلَّا ٢١٠٠٠ نسمةً، منهم: ٤٧٠٠ من الفرنسيين، وحوالي ٨٠٠٠ من الإسبان، و١٠٠٠ من ذوي الجنسيات الأوربيَّة المختلفة، و٧٠٠٠ من الأهالي (الجزائريِّين) أغلبهم من اليهود الذين يتمتَّعون بالثَّراء والغرور[١٥].

وعن تاريخ مدينة وهران، فَيُسمِّيها المؤرخ بطليموس visa colonia، أمَّا "بير بروجير" فيعتقد أنها مدينةٌ عربيَّةٌ، وعندما احتلها الإسبان سنة ١٥٠٩م، قام الكاردينال المتعصِّب "خيمينيس" بضَمِّها إلى التَّاج القشتالي، بعد أن فُتِح المرسى الكبير بأمرٍ منه سنة ١٥٠٥م. وينتقدُ مالتسان فظائع الإسبان في المدينة، ويسخر من الكاردينال خيمينيس بالوصف: "وحضر أكبر فقهاء المسيحيين... وبعد أن استولى على القلعة والمدينة، لم يعرف أيَّ عمل يستدعي سرعة التَّنفيذ غير اتِّخاذ تدابير تدلُّ على عُنصُريَّته وتعصُّبه، فقد حَوَّل الجامعين الرئيسيين إلى كنيستين، وأنشأ ديرَين لتنصير المسلمين، ونَصَّبَ مفتشًا لمتابعة الزنادقة (المسلمين)، ولم يتورَّع الإسبان المتدينون هؤلاء المسيحيون الطَّيِّبون.. عن نهب المدينة وذبح الآلاف من حَضَرِهَا"[١٦].

غير أنَّ مدينة وهران بالمقابل قد عرفت في الفترة الأولى للاحتلال الإسباني ازدهارًا لم تَطُل مُدَّتُهُ، "فَالكُتُبُ التَّاريخية تُحدِّثنا أنَّ كبار اسبانيا وجنوب ايطاليا، كانوا يلتقون في وهران شتاءً، فكانت حياة البذخ والتَّرف واللَّهو تُسيطر على المدينة، ومن هنا أَطلَقَ عليها الإسبان اسم القصر الصَّغير"[١٧]. وبتزايد قوة أتراك الجزائر (العثمانيون)[١٨] انتهى الاحتلال الإسباني لوهران[١٩]، ويُشيدُ المؤلف بمعاملة الحَضَر الحسنة للأسباني الوحيد الذي بقي في وهران بعد استعادتها من الإسبان، وعاش فيها إلى أن احتلَّها الفرنسيون بعد ذلك بسنوات عديدة، ولا شكَّ أنَّ كلاما من هذا النَّوع لا يمكن أن نقرأه في أيِّ نصٍّ من النُّصوصِ الفرنسيَّة.

واصل مالتسان رحلته من وهران إلى تلمسان على ظهر الحصان، لأن السَّفر كما يقول بهذه الطريقة يسمح للسَّائح بمشاهدة النقاط المهمَّة البعيدة عن الطَّريق، وينقُلُ بعضًا ممَّا كُتِبَ عنها في الفترة الوسيطة، فينقل عن الادريسي مثلاً: "وقد ذكر الإدريسي في كتابه نزهة المشتاق أنَّ وهران تَبعُدُ عن تلمسان بمرحلتين كبيرتين أو صغيرتين، وقد وجدتها كذلك"[٢٠]، ويمر في طريقه على قرية "مَسَرغين" والتي يُسمِّيها الإسبان Rio Saldo مُقدِّرًا عدد سكانها بحوالي ١٣٠٠ نسمةً، ليصل بعدها إلى المستعمرة الأوربية قرية "بوتليليس"، ثم منطقة "سيدي البارودي" وسهل "مليتة" الواسع الخصب، والذي توجد حول بحيرته مساكن أُولَى القبائل العربيَّة التي تحالفت مع الفرنسيين، وعانت من القبائل الأخرى أثناء حربها مع الأمير عبد القادر[٢١]، ويشير مالتسان إلى أنَّ أتراك الجزائر (العثمانيون) والكراغلة، بل حتى حضر العامَّة الأصلاء والمثقَّفون في تلك الفترة كانوا يحتقرون الأمير ورعاياه، ويصفونهم بالقسوة والهمجيَّة، وأنهم كانوا يُفضِّلون الحُكمَ الفرنسي على حكم الأمير ورعاياه الغلاظ، ولكنَّهم لا يَعدِلُونَ بِحُكمِ الأتراك (العثمانيون) حُكمًا آخر.

بعد ذلك يصل مالتسان "عين تيموشنت" (مستعمرةٌ أوربيَّةٌ)، ويُقدِّر عدد سكانها ما بين ٧٠٠ و٨٠٠ نسمة، ويقدم وصفًا لأهم آثارها الذي اكتشفه ديفرني[٢٢]، ويُشيرُ إلى عبث المستوطنين الفرنسيين بكثيرٍ من هذه الآثار فيقول: "..وعُثِرَ أيضًا على رسمٍ آخر في عين

تيموشنت، يمثل مشهدًا من مشاهد إله الخمر باخوس ولكنَّه – لِسُوءِ الحظِّ – فُقِدَ نتيجة لجهل المعمِّرين الفرنسيِّين، أو حُطِّمَ من طرف الفندال المُحدَثِينَ بما لهم من عبثٍ ومُجُونٍ"[٢٣]، وينتقل بعدها إلى "حجر الروم" على ضفاف واد يسر الذي يبعد ٢٠كلم عن تلمسان، ويصف الكثير من طبيعته ونباتاته وأشجاره التي أعجبته، كما يَسرِدُ بعضًا من تاريخه، اعتمادًا على ما كتبه ماك كارتي.

بعد وهران يصل مالتسان إلى مدينة تلمسان، والتي يرى أنَّ أهميِّتها الحديثة قليلةٌ جدًا إذا قُورِنَت بِعُهُودٍ مَضَت، حيث اعتبرت تاج المغرب في العصور الوسطى، وليس هناك مدينةٌ في الجزائر تستطيع أن تُنافسها في ذلك، بل لعلَّ تونس وفاس ومراكش هي المدن الوحيدة التي يمكن أن تقف إلى جانبها. هذا ويقدم مالتسان في هذا الفصل تاريخًا مفصَّلًا عن تلمسان قديما أو(بوماريا) أو(منيارا)، ليختم حديثه التَّاريخي عنها بالقول: "وكيفما كان الأمر فإنَّ تلمسان كانت مستعمرةٌ رومانيَّةٌ قليلة الأهميَّة نسبيًا"[٢٤]، حيث إنها لم تصبح مدينةً عظيمةً إلَّا في العصر الوسيط، أين جعلها أدارسة فاس في القرن التاسع الميلادي عاصمةً من عواصمهم. ويرى العرب أنَّ يوسف بن تاشفين هو من أطلق عليها هذا الاسم وتعني (الهدف) بلغة الشَّلحة، إلى أن استقل بها يغمراسين (من قبيلة زناتة)، وأسَّس مملكة بني زيان التي سيطرت على قسمٍ كبيرٍ من المغرب خلال ثلاثة قرون، إلى أن انتهى حُكمُ بني زيان، كما تنتهي الأشياء الجميلة فوق هذه الأرض، بسبب حياة التَّرف والبذخ من جهة، والأتراك (العثمانيون) من جهة ثانية، إلى أن ضُمَّت للمتلكات الفرنسيَّة سنة ١٨٤٢م بصفةٍ نهائيَّة.

وبعد اللَّمحة التَّاريخية عن تلمسانٍ يقدم الرحالة وصفًا لموقعها الحالي (القرن التاسع عشر الميلادي) وأقسامها الثلاثة: (حي الكراغلة أين توجد قلعة المشور، مركز المدينة حيث يسكن الأوربيُّون واليهود وتوجد فيه أغلب المنشآت الفرنسيَّة، ثم الحي الذي يسكنه العرب والحضر)، وخلال ذلك يضيف وصفًا دقيقا للأبنية والمساجد وزخرفتها، فقلعة المشور مثلًا: "هي عبارة عن مربع، يبلغ طولها ٨٠٠ قدم، وعرضها ٥٢٠ قدما، ولها أسوارٌ مُسَنَّنَةٌ يبلغ ارتفاعها أربعين قدمًا، وبابان وعدِةَ كُوَى، وهناك بُرجَانِ مُستديران في الجهة الأماميَّة باتجاه المدينة، يجعلان مَنظَرَهَا مُهيبًا، كانت هذه القلعة التي أصبحت اليوم ثكنات ومكاتب عسكرية فرنسية، تمثل قديمًا قصر بني زيان الفخم.. وقلعة المشور تشبه حمراء غرناطة وقَصَبَةُ الجزائر، فهي مدينةٌ صغيرةٌ، تحتوي زيادة على مسجدها الجميل على ستين دارًا، وَحَيٌّ الكراغلة أكثر أحياءِ المدينة عُلُوًّا وأنسَبُهَا صِحَّةً"[٢٥].

ومن الأشياء الجميلة التي تُضفِي على كتاب مالتسان طابع الرحلة والنُّزهة المشوِّقة حضوره حفلة ختان عربيَّة، يصف فيها الكثير من عادات وتقاليد أهالي المنطقة، كما لم يفته زيارة ضريح سيدي بومدين وحضور جانب من حلقات المتصوِّفة حيث يقول: "ودخلت هذا الضَّريح عبر باب قديمٍ يشبه باب الحمراء يَقُودُنِي حارسه، وكان فيه قبرُ المرابط الذي يُغطِّيه رِدَاءٌ من الحرير الأخضر، وكان الشُّيوخ المصلُّون يُؤدُّون صلاتهم حوله، بينما ترتفع أصواتٌ عميقةٌ تُسبِّحُ بحمد الله وتُصلِّي على رسوله، وقد أثَّرَ في نفسي هذا المشهد، فأقمتُ فيه مُدَّةً طويلةً، فقد أدهشتني قُوَّةُ هذه العبادة الجليلة رغم وسائلها البسيطة"[٢٦]. ويبدو أنَّ مثل هذه الآراء هي التي فتحت له قلوب المواطنين.

بعد تلمسان ينطلق مالتسان باتجاه مدينة معسكر، حيث قضى الليلة الأولى في طريقه في خيام قبيلة أولاد ميمون، ويقدِّم في هذا الجزء من رحلته بعض التَّفاصيل عن القياد وطريقة تعيينهم من قبل السُّلطات الفرنسيَّة آنذاك[٢٧]، ليواصل الرحلة باتجاه مدينة سيدي بلعباس، التي يصفها بأنها مدينةٌ عسكريَّةٌ، تتواجد بها حاميةٌ لا تقل عن ٥٠٠ جندي، وقد زار في طريقه أحد قباب سيدي عبد القادر الجيلالي التي قال أنها تكثر بالمنطقة، ليصل في اليوم الرابع من خروجه من تلمسان إلى المنطقة التي تقيم فيها قبيلة الحشم (قرب بوحنيفية)، وهي القبيلة التي قويت بها شوكة الأمير عبد القادر، إضافةً إلى قبيلتا البرجيَّة والغرابة، والتي هاجر قسمٌ كبيرٌ منها إلى المغرب بعد صلح الأمير مع فرنسا.

يقول مالتسان –مُناقضًا نفسه– أنَّ مدينة معسكر تحتل مكان المدينة الرومانيَّة (فيكتوريا)، لكنه لم يستطع أن يجد بها أيَّ أَثَرٍ! ويعود منها مباشرةً إلى وهران

(السَّانية بالضبط والتي أنشئت سنة ١٨٤٤م)، مارًا في طريق عودته ببني شقران، ثم سيق "سان دينس"، والتي يصفها بالمحطة العسكرية، ويصف خلال ذلك ميدان معارك "سيق والهبرة"، حيث ألحق الفرنسيون بالأمير عبد القادر سنة ١٨٣٥م هزيمةً مُنكَرَةً، وذلك بعد انتصاره الحاسم في معركة "المقطع".

ثالثًا: الرِّحلة الثَّانية (من الجزائر العاصمة إلى جبال جُرجُرة شرقًا)

بعد انتهاء رحلة مالتسان في الغرب الجزائري، يعود من وهران إلى الجزائر مباشرةً عبر السَّفينة، ليبدأ مرحلةً ثانيةً من رحلته باتجاه المناطق الشَّرقية هذه المرَّة، وتمثَّلت المرحلة الأولى منها في زيارة المناطق السَّاحلية بداية بمدينة "دلّس" على العربة، إلى أن انتهى به المطاف إلى بجاية، وزيارته وادي السَّاحل والمناطق الجبلية، وعدَّة مُدُن في الهضاب: كبرج بوعريريج، سطيف، وسور الغزلان، فمدينة "دلّس" تقع على السَّاحل شرقًا، على بعد ٩٥ كلم عن العاصمة، ويوجد في محيطها عدد من القرى: فوردي لو (برج البحري) الذي بناه الفرنسيون حديثًا (سنة ١٨٥٦م)، لارسوطا (وادي الخميس) وهو واد قليل المياه، كاب ماتيفو أو (رأس تامندفوس) الذي يُشكِّلُ أقصى نقطةً شرقيَّةً في ميناء الجزائر، وتوجد بقربه ثلاث قرى صغيرة هي: عين طاية، عين البيضاء وماتيفو.

بعدها يواصل مالتسان رحلته فوق الجياد، أين يصل إلى "مرسى الدجاج"، واضطر للمبيت على شاطئ البحر، حيث كانت له قصة مع أحد الصيَّادين ذا الملامح الحربيَّة عكس عمله الهادئ تمامًا، وينقل لنا جانبًا من حواره معه: "..وسألتُهُ هل قتلت كثيرًا من النَّصارى؟ فالتمعت عيناه بشكلٍ مخيف كما لو أنَّها تُريدان أن تقولا: أجلٌ كثيرٌ جدًا ولكنَّ فمه نطق بعكس ذلك، فقال أنَّه لم يقتل أحدًا قطّ، فقد كان يُسلِّمُ جميع النصارى في سوق العبيد لحساب الباشا، وهذه هي طبيعة جميع القُرصان الذين تعرَّفت عليهم في الجزائر[٢٨]، فلا أحد يودُّ أن يتحدَّث عن مغامراته، ولا يذكرون شيئًا خاصَّةً فيما يتعلَّق بالسَّبَايَا"[٢٩].

في الصباح يغادر الرحَّالة باتجاه جنَّات (مرسى جنة المذكورة عند ابن حوقل والبكري، أمَّا الاسم الحقيقي لجنة فهو مستمدٌّ في الأصل من اسم (بني جناد)، وهي قبيلةٌ كانت تسكن في هذه المنطقة منذ القدم. يصل بعدها إلى دلس اللَّطيفة كما يصفها أو(روسوكورم) الرومانية القديمة، وكان اسمها "تادلس" في العصور الوسطى، واكتسبت أهميَّةً تجاريةً في تلك العصور نظرًا لمينائها الممتاز، لكن بالرغم من أنَّها مدينةٌ قريبةٌ من العاصمة فإن الفرنسيين لم يحتلوها إلَّا في وقتٍ مُتأخِّر نسبيًا، أي في الحملة التي قام بها المارشال بيجو سنة ١٨٤٤م، وهو ما يُبيِّن مدى قوة المقاومة الجزائرية للاستعمار الفرنسي في بداياته.

ومن أهم ما يورد مالتسان في هذا الفصل، تاريخ بعض أبطال الجزائر، كقصة (لالا ثريا) البطلة الشَّابة، التي تَحَدَّت إرادة أبيها، وأَبَت عليه استسلامه للطُّغاة، وراحت تُثِير الشَّباب ضدَّ فرنسا وتدعوهم إلى مناهضتها، فكانت تزرع بذور الثَّورة ضدَّ المستعمر أينما حلَّت، إلى أن وقعت أسيرةً في أيدي الفرنسيين إثر وشاية، وكان مالتسان قد التقى بها في طريقها إلى المعتقل، وشاهد بعينيه تبجيل الشعب الجزائري لها[٣٠].

وبوصوله إلى ساحل القبائل الكبرى يحدثنا مالتسان عن القبائل البربرية الموجودة حول دلس، ويذكر منها بني تور (توارقة)، بني سليلم، بني واقنو، وفليسة. وعن تاريخ منطقة "تيجيسيس" Tigisis وأسقفها سيكوندوس، وكذا المدينة الرومانية "يومنيوم" Jomnium، كما يحدثنا عن زواوة أو (العشائر الخمس)، وكيف كانت تحت حكم شيخ قبائلي لم يذكر اسمه (يقصد أحمد بن القاضي)، ويسرُدُ قصته تحالفه مع الإسبان، وإرسال باشا الجزائر للإنكشارية التي استطاعت بسهولةٍ أن تستولي على الحصن الذي وعد به الإسبان، وكانت النتيجة خضوع "ملك كوكو" للباشا، بعد أن كانت تبعيته له اسميةٌ فقط، وسلَّم الإسبان للأتراك بعد أن غدر بهم.

ويشير مالتسان إلى قلَّة المصادر عند القبائل البربريَّة، فَهُم لا يقيمون وزنًا للرِّوايات التَّاريخيَّة، ولا يعرفون أصلهم. وهناك كثيرٌ من شيوخهم يحاولون أن يعودوا بنسبهم إلى العرب، وساعدتهم العقيدة الدينيَّة على تبنِّي الكثير من أحكامهم المسبقة، كما ليس لهم تصوُّرٌ واضحٌ للأحداث التَّاريخيَّة التي وقعت في فترة ما قبل الاحتلال الفرنسي، وعندما يتحدثون عن الأتراك

(العثمانيُّون)، وعمَّا فعلوه في بلاد القبائل الكبرى، فليست لهم سوى فكرةٌ غامضةٌ؟![٣١]. وتعميمٌ مثل هذا غريبٌ جداً من مالتسان، وفيه تجنٍّ كبيرٌ، ولا ندري أين الخطأ عندما يعود القبائل بِنَسَبِهم – كرواية من الرِّوايات التَّاريخيَّة على كثرتها في أصل البربرٍ– إلى العرب، وهو ما أشار إليه كثيرٌ من المؤرِّخين كابن خلدون[٣٢].كما يروي مالتسان قصص بعض ضحايا الاستعمار من الفرنسيين أنفسهم، في صورة امرأة لم تستطع أن تحتفظ بأطفالها الستة في منطقة آزفون، ذلك أنَّ سكان شمال فرنسا ومثلهم الألمان والانجليز، لا يستطيعون العيش في مناخٍ جزائري، دون أن يتأثروا صحيًا، عكس سكان جنوب الطليان والإسبان.

يواصل مالتسان الرحلة مارًا بالعديد من المناطق في طريقه إلى بجاية منها "رأس سيغلي" المشتق من (روس أسيس) أي الرأس الحصن، ثم "رأس كوربلين" أكبر وأهمُّ خليجٍ في الجزائر، أين يتراءى له خليج بجاية، وجباله المرتفعة: "ومن بين هذه الجبال التي ترتفع فوق خليج بجاية، كانت هناك ثلاثة جبالٍ يراها المرء أينما وُجِد.. هي جبل الريبور في الشَّرق (ستة آلاف قدم).. وجبل كندروة أو (بني خليل) في الجنوب، أما في الغرب فيرتفع جبل بني ميمون فوق غابات غنية بأشجار البلوط"[٣٣].

في الفصل الثالث يحدثنا مالتسان عن مدينة بجاية المهمَّة في الجزائر قديمًا وحديثًا، فهي تحتل مكان المدينة الرومانية القديمة (صالداي)، ويخصص ثلاث صفحات كاملة لتاريخها في العصرين القرطاجي والروماني، بالاعتماد على كتابات بطليموس وبلينيوس وسترابو، وحتى بعض الأثريين كمانيرت وليون ريني وشو، كما يصف بعض النقوش التي وجدت بالمنطقة، كنقوش أوفيديوس هونراتوس التي يحتفظ بها في متحف الجزائر.

أما بجاية القرن العاشر الميلادي، فقد ظهر فيها الصنهاجيون (بنو حماد)، الذين اتخذوها مقرًا لملكتهم، وأطلقوا عليها اسم بجاية، وينقل ثناء الإدريسي الذي زارها بعد قرنين: "ولعلَّ بجاية كانت في ذلك الحين أهمَّ مدينةٍ في شمال إفريقيا"[٣٤]، ويواصل سرد تاريخها العريق، حيث وبسقوط دولة بني حماد عام ١١٥٢م على يد عبد المؤمن الموحدي الذي ضمَّها إلى الدولة المغربية (الموحدية)، انتقلت في مرحلة أخرى من تاريخها للدولة التونسيَّة، حيث عرفت ازدهارًا لحركة التجارة، وبدأ البيسانيون ثم البندقيون والجنويون يقيمون علاقاتهم مع "بوجيا"، واستطاعوا المحافظة عليها حتى بداية الاحتلال الإسباني أين تراجع دورها الحضاري، يقول مالتسان: "وفي القرن الخامس عشر الميلادي بدأت بجاية تفقد سمعتها عند التُجَّار المسالمين، إذ بدأ سكانها يستسلمون للقرصنة، عَدُوَّة كُلَّ حركةٍ تجارية ويبدوا أنَّ الإسبان كانوا أول من عانى من قرصنة البجاويين، ولوضع حد لهذه الحالة أرسل الكاردينال خيمينيس سنة ١٥١٠م حملةً بقيادة الأمير بيدروا دي نافارو إلى بجاية، فاستولى عليها بعد مقاومة قصيرة قام بها الأمير التونسي عبد الرحمان"[٣٥]، غير أنَّ السُّلطة الإسبانية لم تَدُم طويلًا، بسبب ظهور قوة جديدة تمثَّلت في القراصنة (البحارة المجاهدين) الأتراك (العثمانيُّون)، وعلى رأسهم الأخوان عُرُوج وخير الدين اللذين حاربا الحكومة الإسبانيَّة دون هوادة[٣٦]، حيث لم يكن النجاح حليفهما في البداية، ففي سنة ١٥١٢م فقد بابا عروج ذراعه أمام بجاية عندما حاول فتحها، ولكن حلفاءه لم يعرفوا الراحة إلى أن تمكنوا في النهاية من طرد الإسبان من هذا الموقع الهام، فقد استسلم سنة ١٥٥٥م "الدون ألفانسوا دي برالتا" آخر الحكام الإسبان في بجاية، فدخلت المدينة في ملكية صالح رايس باشا الجزائر[٣٧]، وبقيت بجاية كذلك إلى أن احتلها الفرنسيون في ٢٣ سبتمبر ١٨٣٣م، لكن إخضاع بلاد القبائل حقيقة لم يتم إلا في سنة ١٨٥٧م.

وخلال ذلك يحدثنا الرَّحَّالة أيضًا عن بعض أحداث المنطقة في تلك الفترة، (أو كما سمَّاها الثأر)، في قصة اغتيال القائد الفرنسي "سولومون دي موسي" وترجمانه وبعض الضُبَّاط سنة ١٨٣٦م، من طرف الشَّيخ سعد محمد اومزيان ولد اوعمر شيخ قبيلة بني تازمالت، وهذا بعد أن أغراهم بالصلح، ثأرًا لإعدام الجنود الفرنسيين لعنايته (وهو مرابط عجوز مسكين ارتكب خطأً باقترابه من مركز فرنسي). وأخيرًا يختم مالتسان رحلته في بجاية بزيارة جبل قوراية، واصفًا طبيعته ومناظره الخلابة على السَّاحل والمروج الخضراء لكنه يزدري الآن

منظر القلعة الفرنسيَّة التي تُكَلِّلُ قمَّة الجبل، والتي يؤذي منظرها المسلمين.

لم تنفتح الطُرُق إلى داخل القبائل إلَّا حديثًا (يونيو١٨٥٧م) وهو التَّاريخ الذي تمَّ فيه إخضاع جميع قبائل المنطقة بالقوة ، وتعتبر المنطقة من أواخر من اعترف بالسُّلطة الفرنسيَّة في الجزائر، وبالحديث عن الطرق الرومانية القديمة التي تميز بلاد القبائل، فهي تنقسم حسب مالتسان وفقًا لطبيعتها الجغرافية إلى قسمين كبيرين: قسمٌ يقع جنوب سلسلة جبال جرجرة وقسمٌ شمالها، وينطلق مالتسان شرقًا بجانب وادي الساحل أو (واد بومسعود)، والذي يسميه بطليموس نسافا Nasava عبر أراضٍ خصبةٍ تحيط بها جبالٌ شامخةٌ، ويصل منطقة قبيلة "فتاية"، التي كانت عداوتها للفرنسيين سابقًا مضرب المثل يقول بهذا الصَّدد: "..وكانت قرية فتاية هي التي حرَّضت الشيخ سعد أكثر من غيرها على قتل القائد العسكري دي موسي"[٣٨]، ولا ينسى مالتسان أن يشير إلى اقتصاد أهالي المدينة منذ القديم ألا وهو الزيتون، كما مرَّ في هذه المنطقة بآثار المدينة الرومانيَّة (توبوسوبتوس)، التي ذُكِرَت عند المؤرِّخين القدماء، ويحدثنا عن بعض قبائل المنطقة كقبيلتي آيت يمل، وآيت مسيسينة.

بعدها يجتاز مالتسان منطقة "آيت ورلي"، ليصل قرية قبيلة "آيت اورسلاغن"، أين قضى ليلته لأوَّل مرَّةٍ منذ مجيئه للجزائر في بيت قبائلي، مقارنًا إياه في معرض وصفه بالخيمة العربيَّةٍ. ينتقل بعدها إلى منطقة يلولة، وهي كما يقول عنها قبيلةٌ كبيرةٌ من قسمين رئيسين، وهي: "يلولة أمالوه" في الشمال و"يلولة أزمورة" في جنوب سلسلة جبال جرجرة، حيث تقع قرية شلاتة التي تتواجد بها زاوية يُكَوِّنُ مُعلِّمُوها وتلامذتها معظم سكان القرية، ويحدثنا عن بيت الآغا الذي يختلف عن بيوت شيوخ القبائل، "فقد بُنِيَ على الطريقة الحضرية في الجزائر، وكان الآغا الذي كانت معنا رسائل له، غائبًا في تلك الفترة لأنه كان يقيم في أغلب الأوقات بسهل وادي السَّاحل، ويسكن بناية تبعد عن شلاتة بحوالي ٧كيلومترات، كانت الحكومة الفرنسية قد أمرت ببنائها له سنة ١٨٥٥م"[٣٩]، وزار مالتسان أيضًا المسجد والزَّاوية، ووصف كُتَّابها ومرابطيها.

يواصل الرَّحَّالة سَيرَهُ شرقًا، عبر سهل وادي السَّاحل، ليصل منطقة "أوزم" الأثرية ثم "آقبو" (برج الآغا)، ويحدثنا عن ظاهرة "الصُّفوف" الخاصة ببلاد القبائل، وهي عبارة عن تقسيمات فرضتها طبيعة المنطقة (الفوقاني والتحتاني)، ونشأت خلال قرونٍ عديدة بسبب الاضطرابات والتَّحزُّبات التي تميل إليها هذه القبائل كلَّ الميل، كما يروي أساطير ربما يكون لها الأثر في نشأتها. وبعد أن ودَّع مالتسان "آغا يلولة" يواصل رحلته واصفًا لمنطقة جرجرة وجبالها السَّوداء.. أين يلتقي في طريقه الرجل الأوَّل في قبيلة آيت مليكش (هذه القبيلة المحاربة)، والتي كانت لها حوالي ٣٠ قرية أغلبها في منحدرات وادي السَّاحل، وقسمٌ منها على جبال جرجرة المنحدرة، وقد مرَّ بعدد من القرى الواقعة في أماكن منخفضة، حيث توقَّف في إحداها، ودخل بعض البيوت القبائليةٍ، يقول: "ولم تَفِرَّ القبائليات عند رؤيتنا، وذلك ما تعوَّدت البدويات والحضريات فعله، وكُنَّ كُلُّهُن سَافرات، على غرار جميع الجزائريات اللَّواتي يَسكُنَّ الأرياف، ولم أكتشف بينهنَّ امرأةً ذات جمالٍ كبير، والسَّبب في ذلك أنهن يَقُمْنَ وَحدَهُنَّ تقريبًا بالعملِ في الحقل والبيت، ويُقَالُ أَنَّهُنَّ جميلاتٌ في ريعان شبابهن، غير أنَّ برودة الطَّقس في الشتاء وحرارة الشَّمس في الصَّيف التي يتعرَّضن لها دائمًا، يجعل من ابنة العشرين بالإضافة إلى الأعمال الشَّاقَّة التي تقوم بها، تظهر بمظهر امرأة في الخمسين"[٤٠]. ويشير الرَّحَّالة إلى بعض الصِّفات التي لم تنل رضاه في هذه القبيلة وفي القبائل البربريَّة عمومًا، والتي لا نتفق معه فيها، بحكم أنَّها تبقى حوادث شخصيَّة وفرديَّة لا ينبغي تعميمها[٤١]، وبالمقابل ينقل مالتسان صفحاتٍ خالدة من تاريخ هذه القبيلة، التي لم يتم إخضاعها إلَّا سنةً ١٨٥٧م، حيث كانت تُكوِّن نواة تحالف قَبَلِي قاده (بوبغلة)[٤٢] ضدَّ الفرنسيين، ويروي قصته نقلًا عن شيخ قبيلة مليكش الذي حدَّثه عن البطل وحياته ونضاله ضد الاستعمار كما لم يفته الحديث عن بعض عادات وتقاليد أهالي المنطقة حال حضوره حفلة ختَانٍ وتسجيل ملاحظاته المتعلقة بتنافس الآغاوات في التَّبرع بالنُّقود فيها.

وبعيدًا عن منخفضات وادي السَّاحل يسلك مالتسان أحد الفروع الجانبيَّة "وادي مغرير الصَّغير" باتجاه جبال البيبان، التي قاد منها "الدوق دورليان" حملةً على المنطقة فاعتصمت القبائل خلفه مستميتةً في الدفاع عن وطنها، وبوصوله إلى مدينة برج بوعريريج، يصفها بالقرية الصَّغيرة التي يسكنها حوالي ٢٠٠ من الأوربيِّين ومثلهم من العرب منذ سنة ١٨٥٠م، وقد كانت لها أهميَّةً أكبر ممَّا قد يتصوره المرء، باعتبارها خطَّ مواصلات، وسوقٌ تبيع فيه القبائل المجاورة مصنوعاتها، "فكانت قبيلة آيت مليكش تَسُوقُ أبقارها، وآيت عباس تبيع فيها منتوجاتها من الزَّيت والصِّناعات اليدويَّة الأخرى وقبيلة أولاد أبي بكر تُزوِّدُ سُوقَهَا بالعسل، وتبيع فيها قبائل مجانة أغنامها الكثيرة وكان الوناغوة يحملون إليها صناعاتهم الجميلة"[٤٣].

يُعَرِّجُ الرَّحالة بعدها في زيارة سياحيَّة لآثار "سيوليا" الرُّومانية التي تقع في قرية "بشيلغا" القريبة من برج بوعريريج، ومنها إلى المدينة الرومانيَّة "سيطيفيس" التي نافست يوليا القيصرية عاصمة موريطانيا لمدَّة طويلة. وسيطيفيس هي "سطيف" الحالية التي استولى الفرنسيُّون على آثارها لأوَّل مرة سنة ١٨٣٨م، ففي سنة ١٨٤٧م أمرت الحكومة بإنشاء مدينة فيها، وفي الطَّريق وكلما اقترب مالتسان من سطيف كَثُرَ عددُ القُرى الأوربيَّة، والمستعمرات الصَّغيرة أين كانت (الشركة الجونيفيَّة للمستعمرات السَّويسريَّة بسطيف) تبنيها، رغم قلَّة عدد السكان.

وعن مدينة سطيف يقول مالتسان: "هي مدينة فرنسيَّةٌ تمامًا، يسكنها حوالي ٢٠٠٠ من الأوربيين، وعدد أفراد حاميتها أكثر بكثير من سُكَّانها"[٤٤]، ويصف شوارعها التي تحمل أسماءً تاريخيَّةً كشارع ترجان، شارع جوستنيان، وشارع القديس أوغسطين ومن الطَّبيعي أن تكون للمدينة ثكناتها، وأسواقها، كسوق الأحد، والذي يُقدَّر عدد من يَتَسَوَّقُونَ به ما بين (٨-١٠) آلاف، أمَّا القلعة الرُّومانيَّة فيعتبرها أفضل ما تُقدِّمُهُ سطيف للسَّائح مُحِبِّ الآثار التَّاريخيَّة، وهي عبارةٌ عن حصن روماني قديمٌ، أَسوَارُهُ سليمةٌ إلى حدٍّ ما، تتمتَّع بفنٍّ معماريٍّ بيزنطي شُيِّد أيام عظمة روما.

ومن سطيف يعود مالتسان مرَّةً أخرى إلى وادي السَّاحل، تاركًا على يساره القلعة العربيَّة القديمة، والتي ازدهرت في (القرن الثاني عشر الميلادي) زمن الإدريسي، وكانت تُمثِّل قديمًا مدينة "زابا الموريطانية" الواقعة جنوب برج بوعريريج، ويَمُرُّ في طريقه بجبل "تمغوت" أعلى قمةً في سلسلة جبال جرجرة، أين أقام الولي سيدي تمغوت قُبَّته هناك، ثم سافر للحج ولا يزال الناس ينتظرون عودته من الحج، وقد مرت قرون على سفره، لكن مريديه لا يَشُكُّون في عودته في يوم من الأيام! كما يروي قصة المرابطة "لالا خديجة" التي اتخذت صومعتها في سفح جبل جرجرة وأسطورة زواجها[٤٥].

يصل مالتسان مدينة "سور الغزلان"، والتي أنشئت سنة ١٨٤٠م فوق آثار مدينة "أوزيا" Auzia الرومانية، وفي موضع قلعة بناها الأتراك، سَمَّوهَا (سور الغزلان) أي عين الغزلان، وكان عدد سكانها حوالي ١٠٠٠ معظمهم جنودٌ، ويحدثنا عن النقوش الثمانية عشر التي عُثِر عليها هناك. بعدها يَنفَذُ الرَّحَّالة إلى عُمقِ بلاد القبائل، بدايةً بعين بسَّام أين وجد -كما يفترض- بقايا الأبنية الرومانيَّة للقلعة الأوزيانسيَّة[٤٦]، ثم يصل منطقة الشرفاء، فذراع الميزان، وهي القرية الصَّغيرة التي أنشأها المعمِّرون قبل فترةٍ قصيرةٍ وتتواجد بها قبيلتا بني سكدة وزواوة، هذه الأخيرة التي يقدر عدد أفرادها بمائة ألف نسمة، وتنقسم بدورها إلى (زواوة الشَّرقية – زواوة الغربية – وآيت إيراثن). وعنها يقول: "..لا تتكوَّن قبيلة زواوة من عناصر متجانسةً مثل أغلب المجموعات القبليَّة الأخرى.. فمن الغريب أنَّ هناك فروقًا كبيرةً بين نماذجِ الوجوهِ والملامحِ لدى أفرادها، فتجد أَنفَ العربي الطَّويل الأقنى بملامحه الجميلة المتَّسقة، وتجد بجانبه وجه البربري الواسع المستدير، كما تجد أَنفَ الزِّنجي الأفطس، وتجد بالتَّالي العُيونَ الزُّرق، والشُّعور الشُّقر الخاصَّة بِشُعوبِ الشَّمال"[٤٧]، كما ينقل كثيرًا من عاداتها، ويروي بعض الأساطير كأسطورة غابة بومدين.[٤٨]

وعبر طرقٍ صخرية وعرة ينتقل مالتسان باتجاه قلعة نابليون، التي بنيت وسط قبيلة إيراثن، حيث يقول: "وقد أُنشِئَت هذه القلعة التي لم يمر على وضع حجرها

الأساسي أكثر من ستَّة أشهر بسرعة، وتمَّ بناء القسم الأكبر منها.. وكان هناك ما يزيد عن ألفي جندي يهتمون بإقامة السُّور..وكان المارشال راندو قد استولى على هذه القرية – قرية آيت اتمايرن – في شهر ماي ١٨٥٧م، بعد مقاومة شديدةٍ من طرف سُكَّانها"[٤٩] ولا يفوته في نهاية هذا الجزء من رحلته وصف جبال جرجرة وقِمَمِهَا، والتي يُطلَقُ عليها القبائل كلمة تيزي: تيزي آيت حدو، تيزي اغرن، تيزي عزولة، تيزي كويست، تيزي تكرات، تيزي اكفادو..الخ[٥٠].

رابعًا: الرِّحلة الثَّالثة (مواصلة الرِّحلة شرقًا وزيارة بعض المناطق الداخليَّة)

انتهز مالتسان فرصة توقف الباخرة الحكومية في بجاية، ليسافر عبرها إلى مدينة سكيكدة في رحلة بحرية على امتداد ساحل نوميديا القديمة، حتى صوله إلى مدينة عنابة كما يتوغَّل داخل البلاد، فيزور: قالمة، سوق اهراس وتبسة.

في البداية تعبر السَّفينة خليج بجاية الرائع، أين يعود مالتسان للحديث عن العديد من المدن القديمة في المنطقة: موسلوبيوم Muslubium، وخوبا Ghoba، والمحطة الفينيقية يارسث، وزياما Ziama القديمة، ليصل بعدها مدينة جيجل التي تقع فوق شبهِ جزيرةٍ صخريَّة، وهي مدينة صغيرةٌ مُهدَّمةٌ إلى حدٍّ كبيرٍ نتيجة زلزالٍ ليلة ٢٢ أوت ١٨٥٦م الذي قضى عليها لعدة سنوات على الأقل[٥١]، يبلغ عدد سكانها حوالي ١٠٠٠ من الحضر و٥٠٠ من الأوربيين، كانت في العصور الوسطى مدينةً تجاريةً مزدهرةً حتى القرن السادس عشر الميلادي أين جعل منها بابا عُرُوج مركزًا لأعمال القرصنة (الجهاد البحري) لمدة طويلة، "..وكانت تُشكِّلُ في ذلك الحين أفضل سُوق في إفريقيا لبيع العبيد المسيحيِّين، وكان بعض الأُمراءِ الأثرياء يُزوِّدُون حريمهم بالجميلات اللَّواتي يُعرَضنَ للبيع فيه...ثم حلَّت بها كارثةٌ غير متوقَّعة فَقَضَت على نشاطها وازدهارها بصورة نهائيَّة.. ذلك أنَّ لويس ١٤ اختارها لموقعها المناسب، ليجعل منها حصنًا تستقرُّ فيه جالية فرنسيَّةٌ"[٥٢]، وكان ذلك سنة ١٦٦٤م بقيادة دي بوفور، لكن الأتراك تمكَّنوا من تخليصها، وبقيت بأيديهم خلال الفترة (١٦٦٤-١٨٣٩م).

ومن جيجل يتجه مالتسان نحو مدينة "القُل" السَّاحليَّة، وهي "كوللوبس" Collops أو خولو القديمة Ghulu، أهم الموانئ في العصور الوسطى، التي اشتهرت بصباغتها الأرجوانيَّة، ليصل خليج استورة أو سكيكدة (روسيكادا قديما)، وهي مدينةٌ فرنسيَّةٌ حديثةٌ، لم يُعجَب بها لرتابتها وتشابه منازلها، فلا بيتٌ حضريٌّ، ولا فنَاءٌ عربيٌّ ولا أسواقٌ، ولا أروقةٌ ذات طابعٍ شرقيٍّ، ولا مَسجدَ ولا مَنَارةٌ[٥٣]. يقول: "لم أكُن قد وصلت إلى الجزائر لأرى نسخةً طبق الأصل من مدينة بضواحي باريس، ولذلك لم تَطَل إقامتي بسكيكدة، فركبت السَّفينة وواصلت سفري من استورة نحو عنابة"[٥٤]، حيث انفتحت أمام عيناه أنظار خليج عنابة، أكبر خلجان الجزائر بعد خليج بجاية، وقبل وصوله يصف الكثير من المناطق التي مرَّ بها كرصيف استورة، وكاب فيرو (راس الحديد)، وبرايتانة وكولوسيتانة، وجزيرة الحديد الصَّغيرة (صخرة العرب)، التي يروي بخصوصها وبكثير من التجني والحقد على المسلمين أسطورة القرصان (مجاهد البحر) العربي الذي كان يسكنها[٥٥].

عنابة يقول مالتسان هي بونة، الاسم المحرف من هيبونا Hippona أو كما تعنيه (المدينة الفاخرة)، أو كما يصفها (محبوبة الملوك القدامى)، إلَّا أنَّه لا ينبغي للمرء أن يغترَّ بذلك، ويتصوَّر أنَّ مدينة أغوسطينوس القديمة كانت تقع في مكان المدينة الفرنسيَّة الحاليَّة، فيعتقد "شو" Shaw أنَّ بونة هي أفروديسيوم كولونيا Aphrodiasium colonia التي ذكرها بطليموس، بينما يَنقُلُ "ماينرت" Mannert هيبو إلى مكان بونة نفسها، ومع ذلك فقد يستطيع المرء أن يعرف لماذا سُمِّيت بونة المدينة باسمٍ قريبٍ من اسم هيبو فسترابون يتحدث عن مدينتين ملكيتين Hippones Regii تقعان على الساحل.

وعن المدينة يقول مالتسان: "وجدت عنابة مدينةً لطيفةً، يَغلُبُ عليها الطَّابع الأوربي إلى حدٍّ كبيرٍ، ويسكنها حوالي ١٢ ألفًا، يُشكِّل الفرنسيُّون أكثر من نصف سُكَّانها، وكان لها ثلاثة موانئ"[٥٦]، ميناء كاسران Pont des cassarins، وميناء الخروب وميناء فور

جنوا Fort genois، إلَّا أنَّ أيًّا منها لم يكن يتوفر فيه الأمان الذي يُبرِّرُ تسميته بالميناء! أمَّا في العهود القديمة خاصَّةً عهد الماصيليِّين، فقد كانت هيبونة محبوبةٌ لدى ملوكها، وأصبحت عاصمةً للولاية كُلِّها بالتَّناوب مع قَرطَة، ولعبت دورًا هامًّا في تاريخ المسيحيَّة، إذ كانت أهمَّ أُسقُفيَّةٍ في إفريقيا بعد أُسقُفيَّةَ قرطاجنة، ومقر القديس أغوسطينوس مؤلف كتاب (مدينة الله)، والذي توفي فيها سنة ٤٢٩م أثناء محاصرة الفندال للمدينة. كما لها عددٌ كبيرٌ من القديسين والشُّهداء، وقد عُقِدَ بها مؤتمران لزعماء الكنيسة أحدهما سنة٣٩٣م، والآخر سنة٤٢٦م، واحتوت على عديد الكنائس والتَّماثيل التي هُدِمَت تهديمًا كاملًا أيام الفندال، باستثناء الكنيسة الأسقفيَّة ومنزل القديس أوغسطينوس، لكنَّ مالتسان لم يكتشف من آثار هيبو شيئًا ذا قيمةٍ باستثناء ما نقله:"..قناةٌ تنقل مياه عيون جبل ايدوغ إلى المدينة الرُّومانيَّة، أنقاضُ آبارٍ كبيرةٍ حجارةُ رصيفٍ كبيرٍ على شاطئ البحر، بقايا كنيسة.. وهذا كُلُّ ما بقي من عظمة المدينة الملكيَّة القديمة!؟"[٥٧].

بعدها يتوغل مالتسان إلى داخل البلاد ويتجه بدايةً نحو قالمة عبر سهل السِّيبُوس الخصب، ويَمُرُّ بعديد القرى العربية: سيدي عواشر وسيدي رماح والقرية الجديدة مندوني Mondoni التي أنشئت سنة ١٨٤٨م ثم قرية النجمية، وهنا يُشير الرَّحالة إلى مُفارقة عجيبةٍ لاحظها، فيقول: "وقد بدا لي أن هناك لعنةً لَحِقَت باستعمار الفرنسيِّين لهذه البلاد، فالعربي الذي لا يعرف الكثير عن الفلاحة، ينجح في استغلال الأرض الجدباء، بينما يفشل الفرنسي الذي قُدِّمت له الأرض الحكوميَّة الخصبة، وذلك رغم المساعدات الرَّسمية التي يَتَلقَّاها"[٥٨]. وكعادته لا ينسى مالتسان زيارة الآثار، هذه المرة آثار اسكوروس القريبة من قرية (النجمية)، والتي اشتهرت بالمعركة التي حدثت بين أنصار قيصر وأنصار بومبيوس، الذي وقف إلى جانبه الملك النوميدي، كما لا يفوته تقديم وصف طبيعي بديع للمنطقة وجبال اوريح وفيجوج، لتكون المستعمرة الأوربية "هليوبوليس" هي آخر محطة في هذه الرحلة، قبل الوصول إلى قالمة وكله فضولٌ لمشاهدة آثار كلاما" Clamma الرومانية أو "كالما"[٥٩]، يقول: "إنَّ منطقة قالمة كُلُّها غنيَّةٌ بالآثار القديمة، ومليئةٌ ببقايا الفن المعماري الذي تركه سادة العالم القديم"[٦٠]، حيث المسرح الروماني، وقلعة كلاما البيزنطيَّة، وكذا آثار "عنونة" الرُّومانيَّة التي تبعد نصف ميل عن قالمة، والتي يعتقد أنها "كاستيلوم فبتيانوم" التي ورد ذكرها في اللوحة البويتينغية، في حين يعتقد كثيرٌ من المؤرِّخين أنها آثار مدينة "تيبليس" Tibilis.

وطبعًا وكعادته يقف مالتسان أمام كُلِّ منطقة، أو مَعلَم تاريخي فاحصًا مُدَقِّقًا فالمسرح الرُّوماني نصفُ الدائري بغالمة (قالمة)، يشبه إلى حدٍّ كبيرٍ المسرح اليوناني في "سيغسته" Segeste قرب ألكامو Alkamo بصقيلية، لكنه يمتاز عن المسارح الرومانية بالمقصورات المخصَّصة لجلوس الأعيان والقياصرة، وكان "بير بروجير"Louis Adrien Berbrugger قد اكتشف نقشًا قرب غالمة ذكر فيه تأسيس هذا المسرح، ويذكر اسم سيدة نبيلة تُدعى "آنيا ايليا ريستيتوتا" Annia Aelia Restituta راهبةً النُّذور، بصفتها مُنشئة مسرح كلاما، ويضيف أنَّها أنفقت عليه ثلاثين ألف قطعة ذهبيَّة، ويخبرنا النقش أنَّ مجلس المدينة قرَّر أن يقيم لها خمسةَ تماثيل، لكنَّها رفضت ذلك تواضعًا، واكتفت بأن يُوضَعَ لها هذا النَّقش، الذي يتحدَّث عن كَرَمِهَا وتواضُعِهَا في آنٍ واحد، وكان المبلغ الذي صرفته يوافق مليونان، حسب القيمةِ النَّقدية للفترة التي تمَّت فيها الرحلة، وهكذا نرى أن (كَلَامَا) كانت مدينةً مهمةً دون شَكٍّ، وإلَّا لما كان لها مواطنةٌ غنيةٌ إلى هذا الحدِّ.

وعن أساطير وروايات المناطق التي زارها ينقل مالتسان أسطورة الملك سيدي ارزاق، وتسمية حمام المسخوطين، هذا الاسم الغريب بالنسبة لهديَّة طبيعيَّة مُفيدةٍ، كما يُفيدنا بالأهميَّة الصحيَّة التي تحتويها مياهه، بفضل الكبريت والعناصر الكلسيَّة الأخرى. وبعد إقامته في قالمة لعدَّة أيامٍ يواصل مالتسان رحلته نحو مدينة تبسة شرقًا، ليصل بعد ٧ كم إلى قرية أوربيَّة تدعى Betit، وهو اسمٌ تستحقه جميع القرى الأوربيَّةٍ في الجزائر وقضى ليلته بعدها في خيمة من خيام قيادة قبيلة الناظور، ليصل في اليوم الثَّاني قرية سوق أهراس، والتي تقع في سفح جبل رسغون، ويقول عن سكانها: "ويتكوَّن سُكَّان سوق أهراس من أجناس مختلطة، فقد استقرَّ فيها التُّونسيون.. كما استقرَّ بها اليهود

والميزابيون الصَّحراويون، وكانت نواة السُّكَّان الأوربيِّين الصَّغيرة بها، سببًا في نشأة حوالي ١٠٠ من البيوت الفرنسيَّة، وقد سُمِّيت شوارع هذه المدينة بأسماء مُستمدَّةٌ من تاريخ نوميديا مثل: شارع مصنيصا، وشارع يوغرطة، وشارع سيبيون، أمَّا فيما يخصُّ الآثار القديمة فإنِّي لم أستطع اكتشاف شيءٍ يَستَحِقُّ الذِّكرَ"[٦١]. أمَّا "تيفاش" فيشير مالتسان بأنها قريةٌ صغيرةٌ تقع في أخصب وِهَادِ قسنطينة، ومع ذلك يُفَضِّلُ أهلَهَا تربية المواشي على الفلاحة.

وبعد وصوله تبسة أو (تفستة القديمة)، يقول بأنها تُذكِّرُنا بسادة العالم! لا ببناياتها فحسب وإنما بسُكَّانها أيضًا: "فهناك شعبٌ غريبٌ يعيش في هذه المدينة الأثريَّة، فليس له قرابةٌ مؤكَّدةٌ بالقبائل البربريَّة والقبائل العربيَّة المجاورة.. والواقع أنَّ عاداته وتقاليده وأسلوب معيشته، بل حتى ملامحه تختلف عن ملامح جيرانه، وعاداتهم وتقاليدهم ومن يستطيع أن يُبرهن على أنَّهم مُخطئون حين يعتقدون بأنَّهم من أصلٍ رُوماني؟"[٦٢]، وهو قول عارٍ عن الصحَّة، ويدخل ضمن محاولة نفي الأصل العربي أو الأمازيغي عن سكان الجزائر يدخل في محاولات الاستعمار الثقافي المتكررة في فكر الرحالين الأوربيين والأجانب عمومًا، ودعم مقولة الأصول اللاتينية للأرض والجغرافيا في كل شمال افريقيا.

وقد أُعجب مالتسان كثيرًا بتبسة إذ يقول: "لم أر في حياتي ما يُداني تبسة في أصالتها، فهي مدينةٌ قديمةٌ، ولها دُورٌ قديمةٌ لا تزال مسكونةٌ، كما كانت في أيام الشَّعب الملكي! لقد كانت بيوت تبسة كلُّها رُوميَّة الأصل، أو لأنَّها بُنيت فوق الأُسُسِ القديمة بمواد الآثار الرُّومانيَّة"[٦٣]، والحقيقة أنَّ تأكيد ومبالغة مالتسان في كُلِّ مرَّة على الأصل الرُّوماني هو من قبيل الدِّعاية، حيث ظل الكُتَّاب الأوربيُّون ينظرون للجزائر على أنَّها قطعةٌ من الغرب، تعرَّضت للافتكاك من الشَّرق في مناسبتين: في القرن السابع الميلادي من طرف الفاتحين المسلمين، وفي القرن السادس عشر الميلادي مع ظهور الإخوة بربروسا[٦٤]، وإلا كيف نفسر أنَّ الرحَّالة وعبر ما يقارب الثلاثمائة صفحة من رحلته لا يشير إلى العمارة العربية أو العثمانيَّة، من دور وقصور ومساجد وأضرحة، إلَّا فيما ندر.

خاتِمَةٌ

تعتبر الرحلات الأجنبيَّة إحدى المصادر المهمَّة في دراسة تاريخ الجزائر، ورغم ما حملته رحلة مالتسان من آراء قد لا نتَّفقُ معه في بعضها، خاصَّة حين يُركِّز على التَّاريخ القديم ويُهمِلُ – قصدًا أو دون قصد– التَّاريخ العربي والإسلامي لمدن الجزائر التي زارها إلَّا أنَّه علينا أن نأخذها على أنَّها وجهة نظرٍ أجنبية من حق أيٍّ منَّا أن يُناقشها، وقد يرفضها، وعلينا أن لا ننسى أثناء ذلك أنَّ مالتسان يتحدَّث عن ظروفٍ وأوضاعٍ معيَّنةٍ في فترةٍ تاريخيةٍ معيَّنة، ومن أهم الفوائد التي نخرج بها من دراسة هذا النَّص الرِّحلي:

أولاً: أنَّه يُعرِّفُنَا على الحياة الاجتماعيَّة، الاقتصاديَّة، وشرائح المجتمع في الجزائر أواسط القرن التاسع عشر الميلادي، والتطوُّر الذي وقع لمدننا وقرانا في بداية المرحلة الاستعماريَّة، وما رافقها من محاولات طمس للهويَّة، وتغيير واقع المدن والمجتمع الجزائري، والذي لا يزال متواصلًا إلى يومنا بقصدٍ أو بغير قصد، ونذكر في هذا الصدد تغيير اسماء بعض المدن الجزائرية كعين صالح وعين أمناس...إلخ

ثانيًا: أن الآراء الواردة في الرحلة تعتبر حياديَّةً إذا قورنت بما جاء في المصادر التَّاريخيَّة والرَّحلات التي وضعها فرنسيُّون، ومن هنا يُعتبر وجهة نظرٍ ثالثة، بالإضافة إلى وجهة النَّظر الوطنيَّة، وهذا لا يعني أنَّنَا نتبنَّى هذه المعارف والتَّجارب بجميع ما فيها، وإنَّما نتناولها بالدَّرس والإحاطة والتَّمحيص.

ثالثًا: تُبيِّن الرِّحلة اهتمام الأوربيِّين عموما بالعالم العربي والإسلامي في إفريقيا ودراسة أوضاعه الطَّبيعيَّة، وأحواله الاجتماعيَّة، وإمكاناته الاقتصاديَّة، ما يُوفِّر للسِّياسيين والعسكريّين معلومات تُساعد على تحديد السِّياسات والخُطط الاستعماريَّة.

رابعًا: تؤكِّد تواصل الأوربيين مع حضارتهم الرُّومانية القديمة، ومدى حرصهم على تتبع آثارها، وهذا ما كان واضحًا في كل محطَّات الرحلة، حيث كان الشُّغل الشاغل لمالتسان، هو بحث ودراسة الآثار الرومانية والتَّعريف بها في كل قرية أو مدينة يزورها.

الإحالات المرجعية:

(١) عمار هلال، **احتلال الجزائر من خلال أدب الرحالة الألمان**، في: أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر المعاصرة ١٨٣٠-١٩٦٢، د.ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٥، ص٦٢ وما بعدها.

(٢) هاينريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غربي أفريقيا**، تر: أبو العيد دودو، ج٣، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨٠.

(٣) السعيد بوطاجين، **"هاينريش فون مالتسان ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا- المقاومة المركَّبة"**، مجلة الموروث، ع٤، ٢٠١٣، ص٨٧.

(٤) للمزيد حول هاته الرحلات ورحلات أخرى قام بها ألمان للجزائر كفيلهلم شيمبر وهرمان هاوف، كليمانس لافينغ، أودفيغ بوفري وغيرهم. **يُنظر:** أبو العيد دودو، **الجزائر في مؤلفات الرحالين الألمان ١٨٣٠-١٨٥٥**، د.ط، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٥، ص١١ وما بعدها.

(٥) سيمون بفايفر، **مذكرات أو لمحة تاريخية عن الجزائر**، تقديم وتعريب: أبو العيد دودو، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٧٤، ص ص٣-٥.

(٦) محمد الهادي الحسني، **الاحتلال الفرنسي للجزائر من خلال نصوص معاصرة**، د.ط، مؤسسة عالم الأفكار، المحمدية الجزائر، ٢٠٠٦، ص ص٦٥-٧٥.

(٧) **أبو العيد دودو: (١٩٣٤- ٢٠٠٤م)**: قَاصٌّ، ناقدٌ أدبيٌّ، مترجمٌ، ولد بدوار "تمنجر" بمدينة العنصر بجيجل، درس بمعهد عبد الحميد بن باديس، ثم انتقل إلى جامع الزَّيتونة، ومنه إلى دار المعلمين العليا ببغداد، ثم إلى النمسا، أين تحصَّل فيها على الدكتوراه سنة ١٩٦١م، ودرَّس بالنمسا، ثم بجامعة كييل بألمانيا، قبل أن يعود إلى الجزائر ويشتغل أستاذًا في قسم اللُّغة العربية بجامعة الجزائر. له أعمال أدبيَّة عديدة، كما سمح له إتقان اللغة الألمانيَّة من ترجمة كثيرًا ممَّا كتبه الرَّحَّالة الألمان عن المجتمع الجزائري قبل وأثناء الاحتلال الفرنسي، ومن بينها: القصَّة الأولى من ثلاثية (مالتسان) التي كتبها عن الجزائر في القرن التاسع عشر الميلادي، الجزائر في مؤلَّفات الرحَّالين الألمان، قسنطينة أيام أحمد باي. **يُنظر:** ناصر الدين سعيدوني، **"أبو العيد دودو مؤرخا"**، مجلة اللغة العربية، مج٧، ع٣، ص٢٠٥ وما بعدها. **وللمزيد يُنظر:** المجلس الأعلى للغة العربية، **الأديب والمترجم أبو العيد دودو مسار وإبداع**، ط٣، دار النشر راجعي، ط٣، سيدي أمحمد الجزائر، ٢٠٠٩.

(٨) محمد حمودي، **"استراتيجية الترجمة عند أبي العيد دودو"**، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، ع٥، الجزائر، مارس ٢٠٠٦، ص٩٢.

(٩) هاينريش فون مالتسان، **ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا**، ج١، تر: أبو العيد دودو، ط.خ (وزارة المجاهدين)، شركة دار الأمة، الجزائر ، ٢٠٠٩، ص ص٥-٨.

(١٠) أبو العيد دودو، **دراسات أدبية مقارنة**، ط١، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٩٩٠، ص٦.

(١١) مالتسان، المصدر السابق، ص٤٩ وما بعدها.

(١٢) نشير إلى أنَّ عناوين الرِّحلات الثَّلاث الأساسيَّة الواردة، لا وجود لها في الفهرس الأصلي للكتاب وأضفناها للتَّوضيح فقط.

(١٣) مالتسان، المصدر السابق، ص١٨.

(١٤) نفسه، ص٣٣.

(١٥) نفسه، ص٣٤.

(١٦) نفسه، ص٢٩.

(١٧) نفسه، ص٢٩.

(١٨) تعدَّدت التَّسميات التي أُطلقت على السُّلطة العثمانيَّة الحاكمة في الجزائر كالأتراك، الأوجاق الأعلاج، العجم وغيرها، لكن تبقى التَّسمية الصحيحة هي (العثمانيُّون)، ذلك أنَّهم كانوا من أجناسٍ مختلفة اللِّسان، العِرقُ والجُغرافيا، لكنَّهم يتفقون في ولائهم للإسلام والسُّلطان. **يُنظر:** أبو القاسم سعد الله، **تاريخ الجزائر الثقافي ١٥٠٠-١٨٣٠**، ج٢، ط١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨، ص ص١٣٣-١٤٢.

(١٩) تمَّ تحرير وهران بعد ثلاثة قرونٍ من الاحتلال الاسباني على مرَّتين، حيث تم الفتح الأوَّل على يد الباي مصطفى بن يوسف (بوشلاغم)، واستعادها الاسبان بعدها بفترةٍ قصيرةٍ فقط (٢٤سنة)، أمَّا الفتح النِّهائي فكان يوم ٤ رجب ١٢٠٦هـ/٢٧ فيفري ١٧٩٢م على يد الباي محمد بن عثمان الكبير. **للمزيد يُنظر:** أحمد بن محمد بن علي بن سحنون الراشدي، **الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني**، تح: الشيخ المهدي البوعبدلي، اعتنى به: عبد الرحمن دويب، ط١، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ٢٠١٣.

(٢٠) مالتسان، المصدر السابق، ص٣٩.

(٢١) نفسه، ص٤١.

(٢٢) يقول عنه: "وأهم ما عثر عليه في عين تيموشنت الرَّسم الذي اكتشفه ديفرني ١٨٤٠م والذي يمثل موت كليوباترا وتبدوا الملكة المصريَّة الجميلة فيه وهي بصدد تقريب الحيَّةِ السَّامَّة من صدرها، وهناك عبدٌ يُمسِكُ أمامها برأس حبيبها ماركوس أنطونيوس، وكأن إظهار موته بهذه الصُّورة هو الذي حمل الملكة المقهورة على الانتحار". **يُنظر:** مالتسان، المصدر السابق، ص٤٣.

(٢٣) مالتسان، نفس المصدر السابق، ص٤٣.

(٢٤) نفسه، ص٥٣.

(٢٥) نفسه ص ص٥٨-٥٩.

(٢٦) نفسه، ص٦٣.

(٢٧) كان "القايد" يسافر إلى الجزائر العاصمة، ويتلقَّى من الحاكم الفرنسي برنس من الصُّوف السميك لتنصيبه قائدٌ معترفٌ به من حكومة الاحتلال الفرنسي، وهو تقليدٌ قديمٌ، حيث يروي مؤرخ جوستنيان في القرن السادس الميلادي "بروكوبيوس Prokopius" أنَّ زعماء قبائل شمال افريقيا كانوا يستلمون برانس التَّنصيب من الوالي، حيث كانت روما تَقرُنُ ذلك بمنح شاراتٍ (صولجان فضِّي وتاجٌ مُذهَّبٌ، ورداءٌ أبيض ثمينٍ، وثوبٌ مُطرَّزٌ بالذَّهب) لإغراء الزُّعماء بقيمتها المادية، كما احتفظ الفندال والبيزنطيون بهذا التقليد الروماني، أمَّا العرب والأتراك فلم يكونوا يُقدِّمون سوى البرنس الأسود، وقلَّدهم في ذلك الفرنسيون. **يُنظر:** مالتسان، نفس المصدر السابق، ص ص٦٧-٦٨.

(٢٨) أدَّى الاحتكاك الحضاري والصراع العسكري بين ضفتي المتوسط، إلى تصاعد نشاط القرصنة في حوض المتوسط، واحتلال سواحل المغرب الاسلامي، وقد صرَّح الراهب الاسباني خيمينيس أُسقف طليطلة، بأنَّه أوَّل من فكَّر في إنقاذ شمال افريقيا من "الوحشية الاسلامية" لكي تنتصر فيها المسيحية والحضارة. لكن ظهور الاخوة بربروسا أعاد التوازن للمنطقة، وسمح لها بالتصدي للقرصنة

الأوربية. **يُنظر:** ابراهيم سعيود، **"القرصنة المتوسطيَّة خلال الفترة الحديثة القرصنة الايطالية نموذجًا"**، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ع١١، ٢٠١١، ص ص١٤٥، ١٤٧.

(٢٩) مالتسان، المصدر السابق، ص٨٩.

(٣٠) نفسه، ص٩٥.

(٣١) نفسه، ص ص١٠٤-١٠٥.

(٣٢) لقد تعدَّدت الدراسات التي تبحث في أصول البربر، منها ما اتَّخذ نهجًا علميًا موضوعيًا، ومنها ما اتَّسم بالذَّاتية والتَّحيُّز، سيما الدراسات الاستعماريَّة. وقد جمع المؤرخ "محمد خير فارس" آراء مجموعة من الأنتروبولوجيين، حصرها في مجموعةٍ من التَّصوُّرات المتنوعة والمختلفة والمتضاربة حول أصول البربر، فهناك الأصل السَّامي، الأصل الحامي، والأصل الهندو أوروبي، والأصل الأفريقي المحلي. هذا ويرى ابن خلدون أنَّ البربر من نسل مازيغ بن كنعان، بمعنى أنَّ أصولهم كنعانيةً مشرقيةً. **يُنظر:** محمد خير فارس، **تنظيم الحماية الفرنسية في المغرب (١٩٢١-١٩٣٩)**، د.ط، دمشق، ١٩٧٢، ص١٩٢ وما بعدها؛ عبد الرحمن ابن خلدون: **تاريخ ابن خلدون**، ج٦، دار الفكر، بيروت، د.ت، ص: ٩٠-٩١.

(٣٣) مالتسان، المصدر السابق، ص١٠٧.

(٣٤) نفسه، ص١١٢.

(٣٥) نفسه، ص١١٣.

(٣٦) من المعروف أنَّ البلاد الجزائريَّة دخلت طوعًا تحت السِّيادة العثمانيَّة في الرُّبع الأوَّل من القرن التاسع عشر الميلادي، أثناء الصِّراع الإسلامي المسيحي من أجل السِّيادة على حوض البحر المتوسط، بين الدَّولة العثمانيَّة حاملة لواء الجهاد الإسلامي، والدُّول الأوربيَّة وعلى رأسها اسبانيا الكاثوليكيَّة حاملة شعار الاسترداد المسيحي، فبعد استشهاد (عُرُوج) سنة ١٥١٨ بوادي المالح، طلب أعيان الجزائر من خير الدين بربروسا الانضمام للدَّولة العثمانيَّة للحصول على المدد، وبالفعل أُلحِقَت الجزائر بالدَّولة العثمانيَّة، وأمدَّها السُّلطان سليم الأوَّل بألفي انكشاري، كان لهم الفضل في إبعاد الخطر الاسباني وتحرير السَّواحل والمدن الجزائريَّة، وهو ما يؤكده أيضا "ولهذا استُقبِلُوا على أنَّهم حُمَاةً أكثر من كونهم اسيادًا" **للمزيد يُنظر:** محمد درَّاج، **الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الاخوة بربروس ١٥١٢-١٥٤٣م**، الجزائر: الأصالة للنشر والتوزيع،ط١، ٢٠١٢؛ بيليسيي دي رينو، حوليات جزائرية، تر: دليلة حباني، مج١، أصالة للثقافة، الجزائر، ٢٠١٣، ص١٣.

(٣٧) مالتسان، المصدر السابق، ص١١٤.

(٣٨) نفسه، ص١٢٧.

(٣٩) نفسه، ص١٣٣.

(٤٠) نفسه، ص١٤٨.

(٤١) نفسه، ص١٤٩.

(٤٢) **محمد الأمجد بن عبد المالك الهلالي (الشريف بوبغلة):** ولد سنة ١٨١٠م، يُعدُّ من أبرز رموز المقاومة الشَّعبية ضدَّ الاحتلال الفرنسي، مات شهيدًا نواحي سعيدة بالغرب الجزائري، حيث قاد ثورةً شعبيةً خلال الفترة (١٨٥١-١٨٥٤م)، في منطقة جرجرة ببلاد القبائل، حتى استشهاده في ٢٦ ديسمبر ١٨٥٤م، حيث قُطِعَت رأسه ونُقِلَت إلى باريس، مع رؤوسِ أَمَاجِدَ آخرين، ولم تستعيد الجزائر رفاتهم إلاَّ مُؤَخَّرًا. للمزيد حول حياته وجهاده **يُنظر:** عبد الرحمن دويب، **الحياة الثقافية بالجزائر جوانب من الحياة الثقافية بالجزائر في العهد العثماني (١٠-١٣ هـ) الشريف بوبغلة بطل ثورة بلاد القبائل**، دار المعرفة الدولية، الجزائر، ٢٠١٣.

(٤٣) مالتسان، المصدر السابق، ص١٦٣.

(٤٤) نفسه، ص ١٧٠.

(٤٥) نفسه، ص١٨٢.

(٤٦) نفسه، ص١٩٣.

(٤٧) نفسه، ص١٩٧.

(٤٨) نفسه، ص ص١٩٥-١٩٦.

(٤٩) نفسه، ص ٢٠٠.

(٥٠) نفسه، ص ص٢٠١-٢٠٢.

(٥١) نفسه، ص٢١١.

(٥٢) نفسه، ص٢١٣.

(٥٣) سعى الاستعمار الفرنسي إلى إبادة كل ما يدلُّ على الهوية الوطنيَّة، ذلك أنَّ العمران شأنهُ شأن المكان، الصورة، البنيان، اللباس، ولون البشرة، وأثاث الكوخ ومسمَّياته، إحدى المكوِّنات التي أسهمت في تقوية الحس بالانتماء إلى الأرض المسلوبة، بل لعب هذا الموروث الشَّعبي دورًا أخطر من بعض السِّياسات والأيديولوجيات في حِقَبٍ مُختلفةٍ من تاريخ الجزائر. **يُنظر:** بوطاجين: مرجع سابق، ص٩٤.

(٥٤) مالتسان، المصدر السابق، ص٢٢٣.

(٥٥) يكثر مالتسان من سرد الاساطير والروايات في رحلته في كل مرة، والتي نعتقد أنها ليست عشوائية بقدر ما تخفي كثيرا من النظرة الأوربية المتعالية نحو العرب والمسلمين، وتكريس ازدراء العرب والمسلمين، وكل ما هو غير اوربي وغربي. **للمزيد حول ذلك يُنظر:** مالتسان، المصدر السابق، ص ص٢٢٧-٢٢٨.

(٥٦) مالتسان، نفس المصدر السابق، ص٢٣٣.

(٥٧) نفسه، ص٢٣٨.

(٥٨) نفسه، ص٢٤٢.

(٥٩) حسب الباحث جودا فإن الاسم (كالما) وجد مكتوبا على ما يزيد على أربعين نقيشة للكتابات البونية الحديثة في قالمة، غير أنه بعد فك رموز كتابتها وقراءاتها تبين ان اسم المدينة القديم يبدو ساميا، وأن اللاتينيين قاموا بقلب الاسم بعد أن (مالكا). **يُنظر:** أحمد سليماني، **تاريخ المدن الجزائرية**، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ص٣٧-٣٨.

(٦٠) مالتسان، المصدر السابق، ص٢٥٢.

(٦١) نفسه، ص٢٦٣.

(٦٢) نفسه، ص٢٧٥.

(٦٣) نفسه، ص٢٧٦.

(٦٤) أبو القاسم سعد الله، **"منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"**، **مجلة الأصالة**، الجزائر، ١٩٧٣، ص١٢.